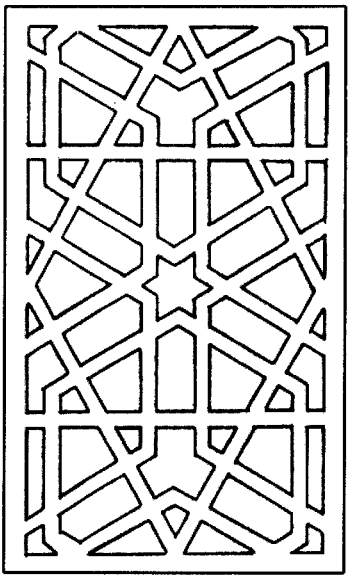

الزمرة الأولى

مكانة العلم في الإسلام

- منـــزلة المتعلم وجزاؤه
- من المهد إلى اللحد
- خفض الجناح للمتعلم
- إعلان إسلامي لحق التعليم
- طلب العلم فريضة
- العلم ميراث الأنبياء
- شمولية العلم
- العلم المفروض على الكفاية
- التشجيع على العلم
- تعليم القرآن
- نماء العلم بتعليمه والعمل به
- أخلاقيات المعلم وواجباته
- أخلاقيات المتعلم وواجباته

١ منزلة المتعلم وجزاؤه

مـــن مكانـــة العلم في الإسلام أن الله عز وجل يأجر على تحصيل العلم كما يأجر على بذل الوسائل في تحصيله، والمألوف أن الإنسان ينال الأجر إذا فعل الأمر، أما إذا بدأ وشرع في أمور هي ليست من جنس الغاية التي يريدها فإنـــه ليس له حق في تحصيل أجر على ذلك، ولكن الله عز وجل من إكرام عباده المجاهدين و المهاجرين والمتعلمين جعل هذه الأمور يؤجر الإنسان فيها على الغاية وعلى الوسائل سواء بسواء، مصداق ذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له به طريقا إلى الجـــنة "[١] . فســـلوك الطريق لطلب العلم مدعاة للأجر، وأي أجر هذا إنه تسهيل طريقه إلى الجنة .

وقـــد بين العلماء أن معنى هذا الحديث يحتمل أمرين: أحدهما إنه سلوك الطريق إلى العلم حقيقة، وهو مشي الأقدام إلى مجالس العلماء ومعاهد العلم ومراكـــزه، فهـــذه الخطوات التي يخطوها الإنسان ليحصل العلم ويكتسب المعرفة يؤجر عليها، وشاهد ذلك قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِه مُهَاجِرًا إِلَـــى اللَّـــهِ وَرَسُولِه ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّه ﴾ [٢] . وهذا في الهجـــرة وقـــول رسول الله صلى الله عليه وسلم في الجهاد : " ما اغبرت قدما عبد في سبيل الله فتمسه النار "[٣] .

---

(١) رواه البخاري والترمذي وابن ماجه .
(٢) سورة النساء / ١٠٠ .
(٣) رواه البخاري .

فســـلوك الطرق وتحمل المصاعب وتجشم المشقة لتحصيل العلم هو أمر يستوجب الثواب بفضل الله وكرمه ، وكأن رسول الله صلى الله عليه وسلم يشـــبه خطوات طالب العلم بخطوات من يمشي إلى المسجد . والحديث يبين أن من يمشي إلى المسجد لم يخط خطوة إلا كتب الله له بها حسنة ، ومحا عنه بها سيئة ، ورفع له بها درجة . هذا أحد الاحتمالين في معنى سلوك الطـــريق لتحصيل العلم .

والاحتمال الآخر أن المراد هو سلوك الطريق معنويا، أي كل ما يؤدي إلى تحصيل العلم وليس قاصرا على الخطوات التي يطؤها الإنسان متجها إلى مكان التعلم . ومثال هذا كل ما يؤدي إلى تثبيت العلم في الصدور ووجود الوعـــي في القلوب، ومن ذلك الحفظ والمدارسة والمذاكرة ومطالعة الكتب وكتابة العلم وتفهمه ، فهذه طرق معنوية لتحصيل العلم .

وإذا كـــان سلوك طرق العلم هو الشرط « من سلك طريقا يلتمس فيه عـــلما » فما هو الجزاء والثواب ؟ يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : سهل الله له به طريقا إلى الجنة . ومعنى هذا التسهيل أن الله عز وجل يسهل لـــه ما أراده ، فإذا ابتغى العلم أعانه الله عليه . ومصداق ذلك قول الله عز وجل : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾[1] .

وهذا أمر مشهود محسوس فكل من أراد أن يقرأ القرآن يجده ميسرا له، وهذا التيسير من بركات هذا الذكر الحكيم .

وقـــد كـــان من شأن السلف الصالح أنهم قالوا : " هل من طالب علم فـــيعان عليه " . أي إن من شأن من يطلب العلم أن يعينه الله عليه فتسهيل حصوله وبلوغه ما أراده هو الجزاء والثواب والنتيجة التي يصل إليها الإنسان.

(١) سورة القمر / ١٧ .

وهـــناك معـــنى آخـــر للجزاء والثواب هو أن الله عز وجل يجعل تلك الوســـائل وذلك السعي سببا لهدايته، فإذا صح قصده وخلص عمله فإن الله تعالى يكلل مسعاه بالنجاح ويجعله مهديا راشدا في أموره التي يبتغيها .

وهناك معنى ثالث وهو معنى حقيقي أنه تسهيل طريقه إلى الجنة ، ونحن نعـــلم بأن الوصول إلى الجنة ليس سهلا لأنه مسبوق بأهوال منها الصراط ، ومـــنها ما قبله، ومنها ما بعده، فإذا أراد الله بطالب العلم خيرا سهل طريقه إلى الجـــنة بـــأن ينجيه من تلك الأهوال ويهون عليه الوصول إلى دار النعيم الخالد .

٢ من المهد إلى اللحد

قد يظن بعض الناس أن التعلم هو مهمة الشباب وحداث السن، ولكننا نجد في تاريخنا الإسلامي وفي القرآن الكريم نماذج تبين أن التعلم ليس هو من شأن الشباب وحدهم وإنما هو تعلم الصغار والكبار :

- أما من تاريخنا الإسلامي فإنه فعل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فمن المعلوم أن أكثر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قد تعلموا في كبر سنهم و لم يعترهم الضعف المعهود للكهول والشيوخ، فقد كانوا في الغاية من النشاط وفي القوة من الحفظ. والسبب أنه كان لهم من حرصهم ودأبهم ما يعوض ما يفقده الإنسان بعد تقدم العمر به . ومن الكلمات المأثورة المعروفة أن الإنسان يطلب العلم من المهد إلى اللحد ، فالعلم هو رفيق الإنسان في عمره . هذا من التاريخ .
- وأما من القرآن الكريم فإنه قصة موسى والخضر التي نقرؤها في سورة الكهف ، ولو أنني أردت أن أسردها بطولها في الحديث كما ورد في صحيح البخاري ومسلم لامتد بنا المقام، ولكنني أوجز بهذه الإشارة إليها :

وقف سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام خطيبا في بني إسرائيل فعلمهم مما علمه الله في دينهم ، فلما فرغ من خطبته سأله أحد الحاضرين : هل تعلم

رجلا أعلم منك يا نبي الله؟ فقال موسى عليه الصلاة والسلام : لا أعلم . كان موسى في هذا صادقا بحسب ما يعتقد لأنه النبي إلى تلك الأمة والله عز وجل أعلم حيث يجعل رسالته، ولكن الله عز وجل كما قال في كتابه : ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ (١) . والله يصطفي من رسله لحكم لا يعرفها إلا هو فقال الله عز وجل لنبيه موسى : بلى عبدي خضر أعلم منك كما جاء في الحديث ، فما كان من موسى إلا أن يسعى لكي يصل إلى هذا الرجل الذي جعله الله أعلم منه .

وقرأنا في سورة الكهف تفاصيل هذه القصة ، وهي أن موسى اصطحب فتاه .. واصطحب معه حوتا صغيرا (سمكة) ليكون فقدان هذا الحوت أمارة على وصوله إلى مكان ذلك الرجل ، وذهب موسى وهو قد جاوز الأربعين . وهنا محل الشاهد لأن الله عز وجل لا يرسل رسولا إلا بعد أن يبلغ الأربعين كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم .

لنتصور رجلا كريما في الأربعين من عمره يتحمل مشاق الرحلة ويأخذ معه الزاد ، ويمضي هو وغلامه على شاطئ البحر يتحرى مكان ذلك الرجل الأعلم منه وينسى طعامه وينسى زاده وحاجته البدنية إلى أن يذكره غلامه فيبحث عن الحوت ، فإذا به قد فقد فيعلم أنه قد قارب المكان حتى يلتقي بعبد الله الخضر ويكون له معه شأن فهو يخرق السفينة، تلك السفينة الصالحة التي لا عيب فيها، ثم يقتل الغلام، ذلك الغلام الساذج الذي لم يبلغ الحلم ولم يجر عليه القلم، ثم يبني جدارا لقوم لم يضيفوه ولم يكرموه، ويستغرب موسى تلك الأمور كثيرا وهو على حق في استغرابه، لأن موسى نبي الله مأمور بالبناء على ظواهر الأمور، كما قيل في بعض الآثار : " نحن نحكم بالظاهر والله يتولى السرائر " .

---

(١) سورة يوسف / ٧٦ .

فموسى كان على حق وكان على مقدار من العلم يكفيه ويجزيه ولكنه حينما صاحب عبد الله الخضر تعلم أمورا أخرى ، أضاف إلى ذلك بناء الأحكام على بواطن الأمور وحقائق الأشياء إذا ظهرت للإنسان، وحقائق الأشياء تظهر لمن أوتي قوة عقلية إدراكية تطلعه على الأسرار الكامنة لها، وقد تكون هذه الإدراكات بفراسة للإنسان، أو بثاقب نظر، أو بشدة إمعان وتأمل، وقد تكون بإلهام يقذفه الله عز وجل في قلبه ، فإذا ظهر له حقيقة أمر وبنى اجتهاده وحكمه وعمله على ذلك الأمر فإنه أيضا مصيب، وهذا ما فعله الخضر فإنه خرق السفينة الصالحة لتنجو من غصب الملك الظالم الذي كان لا يرى سفينة صالحة إلا يأخذها، وقتل الغلام لكي لا يورث أبويه من إثم أوزاره، وبنى الجدار ليكون حفاظا على الكنز المخبوء لسلالة الصالحين، وتعلم موسى من عبد الله الخضر وأدرك أن هناك أمرين وطريقتين : بناء الأمور على الظواهر وبناؤها على بواطن الأمور وحقائق الأشياء إذا ظهرت بطريق يقيني ، وهذا ما فعله الخضر فإنه قال : ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ﴾ [1]

(١) سورة الكهف / ٨٢ .

٣ خفض الجناح للمعلم

كثير ممن حرموا من فرصة التعليم في الصغر يصعب عليهم أن يجلسوا على مقاعد الدراسة وقد بلغوا من الكبر عتيا، ويرون في ذلك مشقة، والحقيقة أنها مشقة نفسية، وحديثنا الآن مع هؤلاء لتحويل هذه المشقة إلى راحة نفسية .

إن ترك الإنسان تعلم ما يحتاج إليه دائما إنما هو تعريض لنفسه للذل الدائم، فهذا الإنسان الذي يتقلب في أنحاء الحياة ويقف في مواقف مختلفة تتطلب منه أن يكون كاتبا وأن يكون عارفا بكثير من الأمور فإذا به لا تسعفه معطياته على أداء ذلك الأمر يشعر بالذل الدائم، ومن هنا قال الأولون : " من لم يتحمل ذل التعلم ساعة تحمل ذل الجهل إلى قيام الساعة" وتحمل الذل لا يجوز قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه "[١] ، ولذا قد يقول قائل: إن تلك الجلسة التي يجلسها الإنسان الكبير بين يدي معلم قد يصغره سنا فيها ذل وفيه خفض جناح، والجواب أن الخفض للجناح هنا مأمور به، وهو مأجور عليه، ولذا يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ليس من أخلاق المؤمن الملق إلا في طلب العلم " [٢] فالمؤمن لا يتملق، ولا يتزلف ولا يخفض جناحه إلا لوالديه، ولمن يتعلم منه، لأن العلم لا يؤخذ إلا بلين الجانب ولذلك يقول الشاعر :

---

(١) أخرجه الترمذي وصححه وأخرجه ابن ماجه .

(٢) رواه ابن عدي بأسانيد وإن كانت ضعيفة لكنها تتقوى.

إن المعلـــم والطـــبيب كلاهما لا ينفعـــان إذا هما لـــم يكـــــرما

فاصبر لدائك إن عصيت طبيبه واصـــبر لجهلك إن عصيت معلمـــا

وقـــد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأحاديث في فضل التعلم والحث عليه ما يستغرب الإنسان معه كيف أكثر رسول الله صلى الله عليه وسلم الحث على هذا الجانب؟ ولم أكثر عليه ؟ ولا شك أن وراء ذلك حكمة جليلة فرسول الله بعث في أمة أمية لا تكتب ولا تحسب وكان لابد أن ينشـــر فـــيهم روح التعلم وأن يحثهم على تحمل المشاق وعلى استدراك ما فاتهم في الصبا والشباب .

لقـــد كانـــت أحاديـــث رسول الله صلى الله عليه وسلم في الترغيب في العـــلم والتعلم مسهبة وواسعة وجليلة إلى درجة قد يظن الإنسان أنها من غرائـــب الأحاديث مع أنها من الأحاديث الثابتة، ونحن نعلم أنه إذا تضمن الحديـــث كـــثيرا من الترغيب على قليل من العمل فإن ذلك غالبا ما يكون أمارة على ضعفه وعلى غرابته، ولكن ليس العلم قليلا من العمل، العلم جليل مـــن العمـــل ولذلـــك كـــان حض رسول الله صلى الله عليه وسلم جليلا متناسبا معه .

لنستمع إلى هذين الحديثين وهما حديثان صحيحان :

الأول مـــنهما رواه أبـــو الدرداء مرفوعا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " من غـــدا يريد العـــلم يتعلمه لله فتح الله له بابا إلى الجنة وفرشـــت له الملائكة أكنافها وصلت عليه ملائكة السماوات وحيتان البحر (أي أثنـــت علـــيه) وللعالم من الفضل على العابد كالقمر ليلة البدر على أصـــغر كوكب في السماء، والعلماء ورثة الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما ولكنهم ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظه، وموت العالم مصيبة لا تجبر وثلمة

لا تسد ، وهو نجم طمس ، موت قبيلة أيسر من موت عالم " [1] . وقد اشتمل هذا الحديث على كثير من الثناء وكثير من الثواب وكثير من المكانة لمن يغدو ويروح في طلب العلم .

والحديث الآخر عن أبي الردين قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما من قوم يجتمعون على كتاب الله يتعاطونه بينهم إلا كانوا أضيافا لله، وإلا حفتهم الملائكة حتى يقوموا أو يخوضوا في حديث غيره، وما من عالم يخرج في طلب علم مخافة أن يموت أو انتساخه مخافة أن يدرس إلا كان الغادي الرائح في سبيل الله ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه" [2] صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم وجزاه عن أمته خيرا فيما جمع لها من جوامع الكلم وما بين من فضائل العلم .

(١) أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجه وابن حبان في صحيحه والبيهقي وحسنه المنذري .

(٢) رواه الطبراني ورمز له المنذري أيضا بالحسن .

٤ إعلان إسلامي لحق التعليم

لقـــد أعلن رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حجة الوداع أول دعوة لحقـــوق الإنسان ، وبالإضافة لذلك هناك إعلان خاص بحق العلم والثقافة كـــان فـــيه فضـــل السبق لرسول الله صلى الله عليه وسلم أيضا على جميع الإعلانات الثقافية التي سمعنا بعضها ولا نزال نسمع هنا وهناك .

لقـــد كان أول إعلان ثقافي مع ظهور الإسلام أرسى به النبي صلى الله علـــيه وســـلم مبادئ التكافل في الثقافة والتعليم ، فالتكافل ليس اجتماعيا أو اقتصاديا فقط وإنما هو تكافل في كل ما فيه نفع للناس .

لنســـتمع إلى هـــذا الحديث الصحيح، يقول عبد الرحمن بن أبزى أحد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات مرة فأثنى على طوائف من المسلمين خيرا ثم قال : " ما بال أقوام لا يفقهـــون جيرانهم ولا يعلمونهم ولا يعظونهم ولا يأمرونهم ولا ينهونهم ؟ وما بال أقوام لا يتعلمون من جيرانهم ولا يتفقهون ولا يتعظون؟ والله ليعلمن أقـــوام جيرانهـــم ويفقهونهم ويعظونهم ويأمرونهم وينهونهم، وليتعلمن أقوام من جيرانهم ويتفقهون ويتعظون أو لأعاجلنهم بالعقوبة "[1] .

(١) رواه الطبراني في معجمه الكبير بإسناد رواته ثقات كما قال المنذري .

أي إعلان ثقافي أروع من هذا الذي يجعل تقصير العالم في تعليم الجاهل جـــناية وجـــريمة تستحق العقاب ؟! وأي عقاب ؟ إنه عقاب عاجل ليس العقاب الأخروي فحسب، ولكن عقاب الدنيا وعقاب السلطة .

هـــذا هو النداء فلنستمع ماذا كان صداه بين الصحابة وبين الذين عنوا بهذا النداء ، وقبل أن نستمع إلى صدى هذا النداء فإن من المعهود عن رسول الله صـــلى الله عليه وسلم في الوعظ والإصلاح أنه كان لا يواجه إنسانا بما يكـــرهه ، فإذا بلغه عن إنسان معين أمر ارتكبه أو تقصير جناه فإنه يقول : ما بال أقوام بلغني عنهم كذا وكذا، وهكذا فعل هنا .

حين رفع رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا النداء على منبره وقال : " ما بال أقوام " تهامس الناس وبدؤوا يتساءلون: من ترونه عناهم بقوله هذا، وبعد التذاكر بينهم قال قائلهم : إنهم الأشعريون، هم قوم فقهاء ولهم جيران جفـــاة مـــن أهل الماء والأعراب، ولما انتشر هذا الظن بأنهم هم الأشعريون ضـــاقت نفوسهم بهذا فوردوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم متظلمين. فقالوا : يا رسول الله ذكرت قوما بخير وذكرتنا بشر فما بالنا ؟ فإذا برسول الله صـــلى الله عليه وسلم يكرر كل كلمة قالها في ذلك النداء ويؤكد تلك الصـــيحة التي أطلقها بين المسلمين فقد قال لهؤلاء الأشعريين : ليعلمن أقوام جيرانهم وليفقهنهم وليعظنهم وليأمرنهم ولينهونهم وليتعلمن قوم من جيرانهم ويتعظون ويتفقهون أو لأعاجلنهم العقوبة في الدنيا . فقال هؤلاء الأشعريون يـــا رسول الله أنعظ غيرنا؟ تساءل هؤلاء القوم هل يتقدم الإنسان بموعظة غـــيره أم أن الاتعاظ والسؤال هو واجب الجاهل وحده ، فأعاد رسول الله صـــلى الله علـــيه وسلم قوله عليهم وأعادوا قولهم : أنعظ غيرنا فقال ذلك أيضا .

وبعـــد المحاورة كانت النتيجة أن قال هؤلاء الأشعريون لرسول الله عليه الســـلام : يا رسول الله أمهلنا سنة أي أننا نتعهد بأداء ما طلبته منا ولكننا نـــريد مهلـــة وهـــذه المهلـــة هي سنة إنها سنة تستوعب دورة يقوم هؤلاء الأشـــعريون بتعليم جيرانهم، هؤلاء الجيران الذين وصفهم الراوي بأنهم جفاة ومـــن أهل المياه والأعراب أي ممن حرموا فرص الثقافة فليسوا في الأسواق وليسوا في الحاضرة، وإنما هم في البرية ولذلك يحتاجون جهدا كبيرا يتطلب ســـنة مـــن الزمان فأمهلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم سنة ليفقهوهم ويعلموهم ويعظوهم .

ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية الكريمة : ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَـــرُوا مِـــنْ بَـــنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَـــوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ، كَانُوا لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾[1] .

أي نـــداء أعظـــم مـــن هذا النداء ؟ إنه تكافل ثقافي لا يكلف مالا ولا ســـلطة ضبط ولا قانونا يسن أو عقوبات توضع، وإنما هو نذير وتهديد وتخويـــف مـــا لبث هؤلاء الأشعريون العلماء الفقهاء أن بادروا مقبلين غير محتاجين إلى شدة لتنفيذ رسول الله وعيده فيهم .

وهؤلاء الأشعريون لهم أمثال بين المسلمين ولكن رواة الأحاديث يروون نـــبذا وأمثلة، قال رجل يوما للزهري بعد ما سأله فوجد منه بعض التثاقل، وحينما يصدر ذلك من الزهري إنما يصدر من شدة ما يناط بهؤلاء الناس من مهام فالزهري رجل فرغ نفسه للعلم والتعليم ولكن طلبة العلم أحيانا يلحون

(١) سورة المائدة / ٧٨ ، ٧٩ .

في السؤال فيبدو أن ذلك الرجل قد ألحف في السؤال على الزهري فوجد من الزهري بطئا، ومع أنه هو السبب قال للزهري إن الله لم يأخذ الميثاق على الجهال أن يتعلموا حتى أخذ على العلماء أن يعلموا ثم قرأ قول الله عز وجل : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ ﴾[1] إن هذا الرجل المتعلم إنما هو في الحقيقة معلم، هكذا كانت الثورات الثقافية وهكذا كانت الإعلانات، ليست شعارات ترفع ولكنها همم تتحرك وجهود تبذل يسهم فيها العالم والمتعلم، فالعالم يبذل ما عنده، والمتعلم يستفرغ جهده ويقول قائل الناس:

ومن منح الجهال علما أضاعه ومن منع المستوجبين فقد ظلم

وبهذا يتبين أن الإسلام ورسوله صلى الله عليه وسلم هم أصحاب السبق لكل فضيلة .

(١) سورة آل عمران / ١٨٧ .

٥ طلب العلم فريضة

يقـــول رســـول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي روي بطرق كثيرة وإن كان فيها بعض الضعف فاعتبر حديثا حسنا : طلب العلم فريضة على كل مسلم، هكذا ورد الحديث وهذا الحديث كما قلت حسنه المحدثون و لم يرد فيه كلمة " و مسلمة "، ولكن العلماء في شروح هذا الحديث فسروا هذا الحديث فأضافوا من كلامهم على سبيل الشرح : أي "ومسلمة" . وهذا هـــو الشأن في خطاب الشارع الحكيم، يخاطب من هم في مجال رسول الله صـــلى الله علـــيه وســـلم وهم الذكور، فكل ما يرد من خطاب موجه إلى المســـلمين فهو أيضا موجه إلى المسلمات ما لم يرد ما يجعله خاصا بالذكور. وكل حديث يذكر فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلم فمعنى ذلك أنه يشمل المسلمة أيضا، ومن هنا استساغ شراح الحديث أن يقولوا عقب هذا الحديث بعد أن قال رسول الله عليه الصلاة والسلام طلب العلم فريضة على كل مسلم قالوا ومسلمة .

هـــذا هـــو الحديث فما هو العلم الذي جعله رسول الله صلى الله عليه وســـلم فريضة، ثم ما نوع هذه الفريضة ؟ من الواضح أن العلوم كثيرة منها علـــوم الأديـــان ومنها علوم أخرى يحتاجها الإنسان في حياته وهذه العلوم الدنـــيوية هـــي من قبيل الوسائل، بعضها وسائل لعلوم الأديان ، وبعضها

وسائل لإقامة حياة الإنسان ، والإمام الغزالي رحمه الله أشار إلى أن الاختلاف في تحديد العلم المراد في هذا الحديث زاد عن عشرين رأيا للعلماء.

والسبب في هذا أن كل صاحب علم وكل فريق يمهر في علم من العلوم ويعرف قيمته ويدرك خطورته يتجه ذهنه إلى أن يقول بأن هذا العلم تعلمه فريضة، فعلماء الكلام والتوحيد قالوا بأن تعلم ذلك العلم فريضة، وعلماء الفقه قالوا ذلك، ومثلهم علماء التفسير أو الحديث وآخرون من هنا وهناك، ولكن الإمام الغزالي فصل في هذا الأمر فبين من خلال أصل وضعه في هذا المجال أن المراد من (العلم المفترض على المسلم تعلمه) هو العلم الذي يتعرف به العبادات والحلال والحرام وما يحل وما يحرم من المعاملات وما يعرف به ما يجب عليه في وقته، أي إن هذا العلم يختلف بحسب ما يتحدد من الحال، ويختلف بحسب حال الشخص .

والحقيقة أن الأصل الذي وضعه الغزالي أصل متين يحقق الهدف المظنون من نص الحديث الشريف الذي جعل العلم فرضا على الإنسان، ولا ريب أن درجة الفرض.ثقيلة والفرض مخالفته حرام، والفروض التي فرضها الله على المسلمين - بصفتها فرائض أعيان تتناول كل إنسان بعينه وذاته - مبينة في حديث : " بني الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت من استطاع إليه سبيلا "[1] ومفاد هذا أن كل مسلم عليه أن يتعلم من هذه الفرائض ما يستطيع به أن يؤديها على الوجه الصحيح، فيجب على الإنسان أن يتعلم من الصلاة ما يقيم به صلاته، ومن الزكاة ما يؤدي واجب المال

(١) رواه البخاري ومسلم .

الذي يملكه، ومن الصوم ما يؤدي به هذه العبادة، ومن الحج ما يقع به حجه صـــحيحا مبرورا ، ومن العقيدة ما يتره به الله عز وجل ويعبده كما أمر ، ومن العلوم الأخرى كل ما هو وسيلة لأداء هذه الواجبات الدينية، أو لبقاء الإنسان نفسه باعتباره مخاطبا بهذه الواجبات .

ثم يضيف الإمام الغزالي إلى هذا أن الإنسان عليه أن يتعلم ما يحل ويحرم ولكـــن الحلال والحرام كثير فما الذي لا يطالب به في ساعته وفي وقته؟ إنه يـــنظر مـــا يلابسه من الأمور ويتصل به من الشؤون فيوجب عليه تعلمه، وأحيانا يكون الإنسان بعيدا عن أمر ما ولكنه بصدد الوقوع فيه فمثل ذلك أيضـــا يـــندرج فيما يفترض عليه علمه، فإذا أتقن الإنسان هذه الأمور هل انتهـــت فريضة الله عليه وهل هذا هو العلم الذي افترض على المسلم فقط؟ إننا نعود إلى الضابط والأصل الذي رسمه الإمام الغزالي وهو إمام عميق النظر لـــه حظ كبير في الفقه وأصوله والتربية وعلم النفس والعلوم الأخرى العقلية واللغويـــة، هذا الإمام يقول: إن هذه الفريضة بحسب ما يتحدد من الحال ويخـــتلف بحسب حال الشخص ، ولنطبق هذا الأصل نتصور حال الإنسان في زمـــان ومكان انتشرت فيهما القراءة والكتابة وأصبح تعلمهما مفترضا على كل إنسان فإذا مر في طريق فإنه يكتب له : هاهنا خطر، وإذا وقف في مكان يكتب له : ها هنا ممنوع، ويخاطب بخطابات ويتعرض لأمور لا ينجيه مـــن التهلكة فيها إلا أن يتقن الكتابة والقراءة ؟ أليس من الواضح أن ينطبق علـــيه أن هذا أمر مفروض عليه بحسب حاله وحسب شخصه، لأن الشريعة الإسلامية إنما جاءت لمصلحة الناس، ومصلحة الناس ظاهرة بارزة في إدراك هذه الفرائض العينية وقد يلحق بها بعض الأمور بحسب ما يتجدد من الحال وبحسب حال الأشخاص .

لقـــد كانت هذه الأمة أمية، وكان التعلم والتعليم بالسماع والمشافهة ثم تغـــيرت الأحوال وأصبح الإنسان الذي لا يجيد القراءة والكتابة ذليلا بين الـــناس، مهضـــوم الحقوق تضيع عليه الفرص، فإذن يصبح من الفرض عليه أن يتعـــلم من ذلك ما يقيم به أوده وما يحصل به عيشه، وكثير من الحرف والمهـــن الـــتي يكتسب بها الإنسان عيشه لا يستطيع أن يتقنها إلا إذا عرف القراءة والكتابة، فبارك الله في ذلك الإمام العميق النظر الذي وسع هذا المعنى ووضـــع له منارا نهتدي به ، وهو أن الفريضة تتعلق بكل ما يتجدد به الحال وكل ما يحتاجه الشخص بحسب ما تقتضيه الأمور .

٦ العلم ميراث الأنبياء

إن من يغادر هذه الحياة الدنيا إلى الآخرة يدع ميراثا يرثه من بعده، فهل ينطبق هذا على الأنبياء؟ يفصل في ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم حين يقول: " إنا معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه فهو صدقة"[١] . هذا الحديث الشريف الصحيح يبين لنا أن من نعمة الله عز وجل على عباده أنه بعد أن جعل هؤلاء الرسل رحمة للناس في حياتهم : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾[٢] .. جعل ما يخلفونه بعد وفاتهم هو أيضا للناس جميعا فإن خلفوا مالا من متاع هذه الدنيا فإنه يكون صدقة .

ولكن كيف يموت هؤلاء الأنبياء عليهم صلوات الله وسلامه ولا يدعون للناس ميراثا يقتسمونه؟! لنستمع إلى هذا الخبر الذي فيه تشويق للتعلم، وفيه انتهاز للفرص من خلال صيحة يطلقها أبو هريرة رضي الله عنه في سوق من أسواق المدينة يخاطب الناس بما يفهمون ويأتيهم من حيث يهتمون ويستغل هذه النقطة التي أشرت إليها وهي أن العلم ميراث الأنبياء وإذا كانت هذه الحقيقة قد عرفت في زمن أبي بكر الصديق رضي اله تعالى عنه عقب وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما جاءت فاطمة رضي الله

(١) أخرجه أحمد في مسنده ١ / ٩ والترمذي والنسائي ولفظ البخاري في صحيحه (٤ / ١٩٤) : " لا نورث ما تركنا فهو صدقة " .

(٢) سورة الأنبياء / ١٠٧.

عـــنها تطلـــب ميراثها مما ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو أرض في فـــدك فقال لها أبو بكر برفق وتؤدة وحب واحترام قال لها : " إن رسول الله صـــلى اله عليه وسلم يقول : نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركنا فهو صـــدقة"، وفي الحديـــث الآخـــر : " إن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما، وإنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر" [1].

يـــبدو أن هـــذه الحقيقة قد خفيت بعد زمن ولا سيما على أهل الدنيا وأهـــل الأســـواق فإذا بأبي هريرة يجدد هذه الحقيقة، حين مر بسوق من أسواق المدينة فوقف في السوق وقال : " يا أهل السوق ما أعجزكم" قالوا : " وما ذاك يا أبا هريرة " قال : " ذاك ميراث رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم وأنتم ها هنا ألا تذهبون فتأخذون نصيبكم " قال أهل السوق : "وأين هو يا أبا هريرة " قال أبو هريرة : " إنه في المسجد "[2] . وقعت هذه المقالة في أسماع هؤلاء الناس موقعها وتيقنوا أن في المسجد ميراثا لرسول الله صلى الله علـــيه وســـلم قد يكون بعض الأموال وقد يكون بعض المتاع، فرأوا أن يذهـــبوا وأن يكون لهم نصيب من ميراث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهـــم مـــن المســـلمين والمسلمون هم ورثة رسول الله صلى الله عليه وسلم أو العلماء منهم ، خرج أهل السوق سراعا ووقف أبو هريرة في مكانه حتى يـــرجعوا لقـــد أدرك أبـــو هريرة بثاقب نظره أن هؤلاء سيرجعون فإذا بهم يرجعون فقـــال : " ما لكم " قالوا : " يا أبا هريرة قد أتينا المسجد فدخلنا فيه فلم نر شيئا يقسم" فقال لهم أبو هريرة : " وما رأيتم في المسجد أحدا " قـــالوا : " بـــلى رأينا قوما يصلون وقوما يقرؤون القرآن وقوما يتذاكرون الحلال والحرام " فقال لهم أبو هريرة : " ويحكم فذلك ميراث محمد صلى الله عليه وسلم " .

(١) أخرجه البخاري والترمذي وأحمد في مسنده وأبو داود ٢ / ٢٨٥ .

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط بإسناد حسن .

لقد أصاب الحكمة أبو هريرة، فلو أنه قال لأهل السوق أن في المسجد علما يقتسم، وعظة تتدارس وحلالا وحراما يتعلم، لما تحركت لهم ساكنة ولكنه أطلقها فيهم صيحة ليجعل لهم حظا من العلم ويجعل لهم في الدين حظا فإن الله عز وجل يقول : ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنْ الدُّنْيَا ﴾[1] . فليس للإنسان أن يلهث وراء الكسب وينسى واجب التعلم والتعليم بل عليه أن يجعل من نفسه حظا لهذا التعلم .

فإذا استطاع أن يقتطع من وقته فبها، وإذا استطاع أن يشترك مع صاحب له فليتناوب معه تعلم العلم ، كما كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يصنع حينما كان يسكن في العالية، وهي منطقة خارج المدينة المنورة ، فكان يتفق هو وجار له ينزل كل واحد منهم يوما إلى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فيتعلم ما يقسمه الله تعالى من العلم ثم يرجع إلى صاحبه فيشترك معه ، وهذا تطبيق لقول الله عز وجل : ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ [2] .

وأختم بهذا الخبر القصير : كان هناك أخوان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أحدهما يحترف والآخر يلزم رسول الله صلى الله عليه وسلم ويتعلم منه فشكا المحترف أخاه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له الرسول : "لعلك به ترزق "[3] .

---

(١) سورة القصص /٧٧ .

(٢) سورة التوبة / ١٢٢ .

(٣) رواه الترمذي وقال: حديث صحيح .

٧ شمولية العلم

إن العلوم التي افترض الله عز وجل أن تكون باقية مستمرة في الأمة الإسلامية هي شتى أنواع العلوم النافعة وقد جعل لها مستندا من الدين نفسه من الحلال والحرام، من الفرض والواجب الذي أوجبه الله عز وجل كما أوجب على الناس عبادته، فقد أوجب عليهم أن يتعلموا ويعلموا وأن تستمر هذه العلوم بين ظهرانيهم .

و قد يظن الإنسان أنها منحصرة في علوم الشريعة وإذا امتد بها الأمر قد تصل إلى العلوم العربية التي هي في الحقيقة وسائل وأسباب لفهم الشريعة ولكن الذي توصل إليه العلماء و قبل قرون طويلة أن هذه الفرضية فرضية نشر العلوم واستمرارها وبقائها في الأمة ليست مقتصرة على الشريعة أو العلوم العربية التي هي الوسائل لها، وإنما هي شاملة لجميع أنواع العلوم سواء كانت علوما يحتاجها الإنسان في حياته أو علوما تطبيقية أو علوما فكرية، وبكلمة موجزة إنها شتى أنواع العلوم النافعة .

هذه الفكرة قد لا تتقرر في الأذهان إلا إذا رجعنا إلى الماضي قليلا ورأينا نظرة لاحت لعدد من العلماء في عصور ازدهرت فيها علوم الشريعة وأقبل الناس عليها إقبالا شديدا بحافز الرغبة في الدين والطمع في الأجر والثواب

وبحوافـــز أخـــرى دنـــيوية ، ذلـــك أن تلك العلوم كان لها الدور وكانت لهـــا الصـــولة وكان لها التشجيع الرسمي وقد أرصدت لها الأموال ووجدت لهـــا الجهـــات المخصصة وهناك مدارس وهناك مؤسسات يغدق عليها من الحكام ومن أموال أهل الخير المحسنين في صورة أوقاف، هذه العلوم الشرعية انتشرت وأصبح الإقبال عليها شديدا إلى درجة خشي معها بعض المصلحين أن يقتصر الناس عليها ويدعوا غيرها من العلوم .

و لنستمع إلى بعض ما يقوله علماء الحسبة [1]، في تلك القرون الفاضلة فقد أشفقوا على غياب أو ضآلة واضمحلال بعض العلوم الدنيوية ورأوا أن الناس يقفون ويقتصرون على علوم الشريعة، هل مال هؤلاء لاختصاصاتهم وفـــرحوا بذلك دون عمق نظر؟ لا بالرغم من أنهم من علماء الشريعة ومن المشـــتغلين فـــيها ، إلا أنهم نادوا بصوت عال ودعوا الناس إلى أن لا تخلو الســـاحة من تلك العلوم والاختصاصات الأخرى وهم أخذوا ذلك الجانب الدنـــيوي الـــذي يحفز الناس آنئذ على الاشتغال في العلوم الشرعية إذا كان بعض الناس يشتغل بها رغبة في رضا الله عز وجل فقد كان بعض الناس يهتم بهـــا لأن لهـــا موارد، ولأن لها تصرفات دنيوية كالقضاء والإفتاء والتدريس وكل الوظائف البارزة في ذلك الحين، ولكن العلوم الأخرى كانت من قليل المهن والحرف .

ولذلـــك نادى هؤلاء العلماء كالسبكي وابن الإخوة وغيرهم ممن كتبوا في عـــلم الحســـبة الذي هو مفخرة في التاريخ الإسلامي لأنه يشخص الداء

(١) الحسبة معناها الإصلاح والنقض والتقويم حسبة لوجه الله عز وجل وقد وجدت مهمة الحسبة ووجـــدت لهـــا كتـــبها الخاصة . وعلم الحسبة مزيج من علوم الشريعة ومن علم الاجتماع والاقتصاد وشتى أنواع الفنون والخبرات .

في كل عصـــر وفي كل مكان ويصف له العلاج، فإذا بهم يقولون للناس إن العلـــوم كافـــة إنما هي فريضة فإذا حصل الميل إلى العلوم الشرعية فلا ينبغي أن تقفر الساحة من العلوم الأخرى وبذلك أوجدوا ذلك التوازن الذي يجب أن يكون في الأمة الإسلامية، فالعلوم الشرعية والتعمق فيها، والعلوم العربية والتخصـــص فيها، والعلوم الدنيوية الأخرى كلها على قدر سواء، لأن الأمة محتاجة إليها، فكما تحتاج في أديانها تحتاج في أبدانها، وكما تحتاج أن تعرف كـــيف تصـــلي تحتاج أن تحدد القبلة، وتعرف ما يتصل بذلك من المواقيت وعلم الحساب، ومن علم الطب ومن غير ذلك من العلوم .

قـــد نســـتغرب نحن في هذه الأيام تلك النظرة ونقول كان على هؤلاء العلماء أن يتركوا جيادهم متسابقة إلى خدمة العلوم الشرعية ولكنهم وجدوا مـــن الواجب أن يمسكوا عنصر التوازن وينبهوا وينوهوا إليه، ولكن هل هذا التوازن موجود الآن إننا نلاحظ أنه في هذه الأيام قد انعكست القضية، لأن تلـــك العلوم والاختصاصات صارت لها حوافزها المادية الجزلة، وأصبحت العلوم الشرعية ليس لها إلا حافز ضئيل، فلو كان هؤلاء العلماء علماء الحسبة في زمننا لغيروا لون الصيحة التي أطلقوها ولدعوا الناس إلى أن يوجد في هذه الأمـــة كفايتها من علماء الدين، ومن الفقهاء الذين يبينون الحلال والحرام، ومـــن عـــلماء التفســـير والحديث وشتى العلوم الأخرى، حتى يتحقق ذلك التوازن الذي هو قوام الحياة، فالحياة لا تتم إلا بغذاء الفكر وغذاء العقل إلى جانـــب غذاء الجسم ، فكل هذه الأمور على حد سواء ، والإمام الشافعي ذلك الأمام الفقيه المجتهد كان يوصي أي إنسان إذا أراد أن يقطن بلدة يقول له : لا تسكن بلدا ليس فقيه وطبيب، هذا هو التوازن الذي ينبغي أن يوجد في الأمة الإسلامية من منطلق أن هذه العلوم كلها فريضة على الأمة بأسرها ويجب أن تستمر وأن تتداول هذه الأمانة حتى يحملها السابق إلى اللاحق .

٨ العلم المفروض على الكفاية

رأينا فيما مضى من أحاديث كيف أن للعلم مكانته الرفيعة في الإسلام إلى درجة أن الرسول صلى الله عليه وسلم وصف تعلم العلم بالفرضية، وفي الحديث الشريف : طلب العلم فريضة على كل مسلم، ولكن أي نوع من أنواع الفريضة ذلك الفرض ؟

إن الفرض في الإسلام إما أن يكون موجها إلى كل شخص بعينه وذاته وهذا ما يدعوه علماء الفقه والأصول فرض العين ، أي إنه موجه إلى الأشخاص بأعيانهم فلا يجوز أن يقوم إنسان فيه بدلا من إنسان، وهناك من الفروض ما يعتبر فرضا على المجموعة، أي على الكفاية، فإذا وجد في الأمة الإسلامية من نهض بذلك الأمر وأدى المهمة فإنه يكون قد قام بالفرض، ومثل هذه الفرائض يكون الأثر فيها والمردود على الجماعة لا على فرد بعينه أي إنه لا تصلح الأمة ولا تتحقق لها مآرب الحياة السعيدة إلا إذا وجد ذلك الأمر ، من أي شخص وجد ، وبأي وسيلة حصل ، فهو أمر يجب أن يتحقق فإذا قام به بعض الأمة فإنه يسقط الإثم وتسقط التبعة عن البقية .

هذه الفرائض الكفائية هي في الحقيقة شيء تفرد به الإسلام، وإليها ترجع كل ما تحقق للحضارة الإسلامية من نهضة ومن تفوق وبروز، والحضارة الإسلامية ترعرعت في ظل هذا المبدأ، فإن فرض الكفاية هو وراء

الازدهـــار العـــلمي وجميع مظاهر الرقي المختلفة التي اتسمت بها هذه الأمة الإسلامية .

وفي هذه الأيام جمعيات خيرية ومبرات ويتداعى الناس لتكوين المناشط الـــتي يـــؤدون بها خيرا للأمة ، ما هو هذا الخير؟ وما هو هذا الحافز والدافع علـــيه ؟ إنـــه لا شك فرض الكفاية فهذا الخير العميم لا يخص إنسانا بذاته ولا يتناول فردا بعينه وإنما يعود مردوده على الجماعة من حيث هي جماعة، العلم كذلك كما يكون فرضا على الأعيان وعلى الأشخاص بذواتهم يكون نـــوع منه فرضا على الجماعة بأسرها، وينبغي أن يوجد في الأمة أنواع من العلوم والمعارف باقية مزدهرة متحركة يتلقاها الآخر عن الأول، وهذا التلقي لا يحصـــل بأن يوجد في الإنسان من حيث هو معرفة وملكة إنما يتحقق بأن يوجد في الأمة الإسلامية قابلية الاستمرار والبقاء والخلود لهذه العلوم .

هذا هو فرض الكفاية وهو في الحقيقة مدعاة للأجر وسبب من أسباب المثوبة وهي مثوبة مستمرة لأنه ينتظمه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له" فالعلم المنتفع به لا يتحقق إلا إذا أعطى الإنسان من نفسه جهدا غير الجهد الذي يحتاجه شخصيا، هذا الجهد هو تحفظ العلم وتبليغه وتعليمه ونشره .

هـــذه العلوم التي تفرض على الأمة الإسلامية فرضا كفائيا ماذا يكون للإنسان لو قام بها ؟ وماذا يترتب على الأمة إن قصرت في حقها ؟ لقد كان الأمـــر في غاية العدالة فإذا قام بها الإنسان حظي بالأجر، والحقيقة أنه ينفرد بالأجـــر فـــتلك الفئة التي تؤدي للأمة مهمة تحتاجها جميعها، هذه الفئة التي انـــبرت في هـــذا الأمـــر هي التي ينحصر فيها الأجر، لأنها قامت بأمر ليس

مطلوبـــا منها بذاتها وعينها وإنما هو مطلوب من الأمة الإسلامية ، فتصدت لهذه المهمة وتطوعت بالمبادرة لتحقيقها .

هـــذا من حيث الجانب الإيجابي، أما الجانب السلبي فإذا لم توجد هذه الفرائض الكفائية، ومنها تعلم العلوم بأسرها كما أشرت وكما سأفصل فيما بعد فإن الذي يترتب أن يأثم الجميع، يجب السخط وتجب العقوبة على كل الأمـــة الإســـلامية بأســـرها ، ذلـــك أن زوال الإثم رهين بتحقق الأمر ، فمـــا لم يـــتحقق الأمر يشمل الإثم والتبعية الجميع، لا يقال بأن فلانا وفلانا وتلك الطائفة هي التي يزول بها الإثم لو فعلت فإذا قصرت ينحصر الإثم فيها، لا لأن فعلها وتركها ليس لأجلها وحدها وإنما هو لأجل الأمة ولمصلحتها، وهـــذا عـــين العدالة وهو الجزاء الصحيح الذي أوجده الله عز وجل وجعله حافـــزا، قد يكون بالإيجاب والترغيب، وقد يكون بالإرهاب والتخويف، ومن هنا ازدهرت الحضارة الإسلامية واستمرت هذه العلوم وتناقلتها الأجيال بجهـــود يبذلها عدول الأمة، وفي كل فئة وفي كل زمن نجد من ينهض بهذه المهمة ليستحق الأجر وليزيل الإثم عن الأمة كافة .

٩ التشجيع على العلم

بينت فيما سبق أن فرض الكفاية يتطلب أن تكون العلوم كلها موجودة في الأمة الإسلامية وأن يكون هناك توازن خفي يحقق الاهتمام بهذه العلوم، سواء كانت شرعية أو عربية أو عصرية دنيوية يحتاجها الناس في حياتهم ومعاشهم، وهذا التوازن لا يرى طبيعيا وإنما يوجد له ما يرجح كفته كلما اقتضى الأمر، هذا الترجيح الذي نتطلبه إنما هو التشجيع بشتى صوره سواء كان هذا التشجيع بالوعظ والإرشاد والتحبيب، أو كان ممن يلي أمر التعلم والتعليم، أو كان من أولياء الأمور، وهذا التشجيع الرسمي يحتاج إلى وقفة .

إن الخلفاء والحكام والسلاطين الذين ولاهم الله أمور الأمة في كل عصر وزمان كان لهم جانب في تشجيع العلم سواء كانوا علماء أو غير علماء، والحقيقة أن كثيرا منهم كانوا علماء وكانوا يبارون العلماء ويسابقونهم، هذا التشجيع الرسمي هو الذي يحقق التوازن ويضمن بقاء جذوة العلم بشتى أنواعه متقدة مستمرة .

ومن صور هذا التشجيع المكافآت الجزلة التي كان الحكام يقدمونها للمشتغلين في العلوم مهما كانت تلك العلوم وهذه المكافآت كان منها نوع ثابت بصورة عطاء من بيت المال يقيم أود هؤلاء ويفرغهم لحفظ العلوم وصونها وتداولها، وإذا كنا نسمع في بعض الأمم والشعوب المتمدنة الآن

جوانب من هذا التفريغ العلمي بحيث يعطى أناس كفايتهم دون جهد منظور يقدمونـــه وإنما توجد فيهم ملكات العلوم وخبرات الفنون بهدف أن تستمر هـــذه الخبرات وتبقى فإن هذا التفرغ للعلم و التهيئة المادية والنفسية للعلماء قد سبقت إليها امتنا أيام حضارتها وازدهارها، إذ كانت الأعطيات تحقق الكفايـــة وتفرغ البال، ولذلك كان الفقهاء والأئمة يعذرون من يتخلف من تلامذتهـــم إذا شغل بالكسب وطلب الرزق، ومن هنا نجد أن نفرا من هؤلاء الأئمـــة - كـــأبي حنيفة - كان يغدق على تلامذته ويوفر لهم أودهم حتى يتفرغوا لحمل العلم وأداء الأمانة .

وبالإضافة إلى تلك المكافآت المستمرة كان أولو الأمر يجزلون المكافآت للعـــلماء في المناسبات المختلفة، فإذا رأوا نبوغا أورأوا براعة في التأليف من عالم من العلماء في جانب من الجوانب كان له جزاؤه وكان له تشجيعه .

و إلى جانـــب هـــذه المكافآت كانت هناك مشاركة وجدانية لأولياء الأمـــور في العـــلم وحلقاته وتداوله فقد كانت مجالـــس العلماء ومناظراتهم لا تـــنعقد إلا في مجالس أولياء الأمور، ولولا أن هذه المجالس تحظى بتشجيع وتوفـــير الجـــو العلمي المكين لتتداول الآراء بحرية ونزاهة لما استمرت هذه المجـــالس ولتحولـــت إلى شغب ومشاحنات، وهذه المجالس نراها في أيامنا بصورة مواسم ثقافية هنا وهناك، وإلى جانب تلك المجالس كانت المسامرات، فكـــثير مـــن الخلفـــاء كـــان يسهر الليالى الطوال إلى جانب عالم يطارحه في الأشعار والآداب أو في المسائل العلمية والفقهية .

وإلى جانب هذا وذاك كان التقدير العلمي في صور أخرى قد نستغربها حيـــث كان أولياء الأمور يزورون العلماء في بيوتهم، وكانت هذه الزيارات مشاركة وجدانية، وكانوا يزورون معاهد العلم، فصلاح الدين الأيوبي ذلك

الفاتح المعروف الذي كتب الله له أن يحرر أطهر أرض بعد الحرمين من أيدي الصليبين يذكر المؤرخون أنه كان يزور العلماء في بيوتهم وكان يزور كمال الدين الشهرزوي ويقرأ عليه في مجلسه في بيته، ولا يخفى ما كان من تشجيع الحكـــام وأولـــياء الأمور للعلم فحديث البرامكة معروف والمأمون ومجالسه والخليفة الواثق والكامل الأيوبي والمنصور ابن أبي عامر الأندلسي .

لنســـتمع إلى لون طريف من ألوان التشجيع على العلم من الملك المعظم عيســـى بن أيوب، هذا الملك كان عالما وكان يجيد أنواعا من الفنون العلمية وخصوصـــا اللغـــة العربية، وقد أعلن هـــذا الملك أن كل من يحفظ كتاب المفصل للزمخشري يقدم له مكافأة مئات الدنانير ، هذا التشجيع العلمي هو الـــذي كان وراء تلك الثورة العلمية التي قاومت عناصر الفناء، والتي وجدنا فـــيها سيلا من التراث العلمي الذي هو أوعية العلم والذي لو لم يكن هناك جهود فردية وجهود رسمية لحفظه وصيانته لعدت عليه عوادي الزمن وقضت عليه فيما قضت من عمران ومبان وعهود ذهبت وولت ولكن بقيت ثقافتها وحضـــارتها وازدهارها العلمي الذي نقتطف من ثماره ، ونسأل الله أن تدوم هذه الأمانة تتناقلها الأجيال لأنها أمانة حفظ القرآن وبقائه واستمراره .

١٠ تعليم القرآن

العلوم الشرعية كثيرة ومتنوعة ولكن من يريد أن يحصرها ويقلل اختصاصها وتعددها يحاول أن يجعلها أو يجعل منها ثلاثة هي التفسير والحديث والفقه ، والحقيقة أنهم حينما ميزوا هذه العلوم وسلطوا عليها الأضواء لم يغبنوا علوما أخرى يعرف لها المختصون حقها، وإنما أرادوا أن ينوهوا بالعلوم التي يستطيع أن يغرف منها الخاصة والعامة، والتي ينبغي أن تكون هي الثقافة الشعبية التي يتداولها الناس ، فالتفسير لكتاب الله عز وجل من خدمة كتاب الله، والحديث هو سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم التي تفسر الكتاب وتبينه، والفقه هو ثمرة القرآن والحديث لمعرفة الحلال والحرام التي لا يستغني عنها مسلم، فإذا استغنى عن أن يتخصص ويتعمق فلا بد أن يأخذ منها بطرف وأن يلم بفرائضه العينية التي تتصل بأركان الإسلام وبما يحتاج إليه في اختصاصه ومجال عمله وحرفته .

إن هذه العلوم الثلاثة (التفسير والحديث والفقه) توجد في ظلها علوم أخرى، فالفقه يستتبع أصول الفقه، والحديث يستتبع مصطلح الحديث. ومصطلح الحديث وأصول الفقه هما معيار العلم في الإسلام، فمصطلح الحديث يضبط نقل العلوم وتواردها ومضيها في رحلة الزمن، فهو الذي يجعل العلوم تنقل بأمانة. أما أصول الفقه فهو الذي به نفهم هذه العلوم

وتستنبط دلالتها ويفهم مراميها ومضامينها، فهذان العلمان (مصطلح الحديث وأصول الفقه) هما معيار العلم .

وقبل هذا وذاك القرآن الكريم فإن تعليم و تعلم القرآن الكريم علم مستقل، بل إنه أول العلوم فهذه الأمة إنما انتقلت من الأمية إلى الثقافة والعلم بالقرآن الكريم، فالكل يعلم أن أول كلمة نزلت من السماء قول الله عز وجل " اقرأ " ، ومعنى كلمة " اقرأ " امح أميتك، لأن الأمي هو الذي لا يحسب ولا يكتب، والقراءة تتطلب مقروءا، والمقروء هو المكتوب الذي يستطيع الإنسان أن يفهمه ويلفظه، فالقرآن الكريم هو الذي كان الجولة العظمى والحملة الكبرى لتحويل هذه الأمة من الأمية إلى الكتابة والقراءة .

وإذا رجعنا أدراجنا في التاريخ نجد أن أول ما عقدت مجالس العلم وبيوت التعليم كانت على هذا الذكر الحكيم، وأول ما نشأت المدارس ونشأ التعليم وحلقه إنما كان على هذا القرآن الكريم، فإنه كانت في المدينة بيوت تخصص من بيوت الأنصار لتدارس القرآن الكريم، وتدارس القرآن الكريم يستتبع بالضرورة تعلم القراءة والكتابة وقد سموا هذه البيوت المكتب أو الكتاب وهي الفكرة التاريخية التي أدركها الجيل إلى عهد قريب .

وأول من جمع الصبيان لتعلم القرآن وتعلم القراءة والكتابة هو عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وقد جمعهم على عامر بن عبد الله الخزاعي الذي نستطيع وصفه بأنه أول معلم للقرآن والكتابة والقراءة ، وجعل له رزقا من بيت المال، وحدد له مواقيت للتعليم بأن يجلس للصبيان لتعليمهم من الصباح إلى الضحى ، ثم يدع لهم فرصة للراحة ويجتمع بهم ثانية من الظهر إلى العصر .

هـــذه أول مدرســـة شهدها تاريخ هذه الأمة وكانت مدرسة للقرآن كانـــت كـــتابا لتعلـــيم القـــرآن الكريم وما يستتبعه من محو الأمية ويقول الواقدي[1] مؤرخا حال هذه المدرسة الأولى لمحو الأمية ولتعليم القرآن، يقول بأن هذا المعلم عامر بن عبد الله الخزاعي كان يعلم هؤلاء الصبيان طوال أيام الأسبوع باستثناء الجمعة، فلما سافر عمر بن الخطاب في رحلته المعروفة إلى بـــلاد الشـــام ليتســـلم القدس حينما أبى أهلها أن يصالحوا على تسليمها ويســـلموها إلا للخليفة نفسه، فلما رجع عمر بن الخطاب من رحلته هذه وكان قد قضى زمنا طويلا اشتاق الناس إليه، فخرج هؤلاء الناس للقاء عمر بـــن الخطـــاب من طوعهم ومن نفوسهم، وخرج معهم الصبيان المتعلمون ومعهـــم معلمهم هذا إلى مسافة بعيدة خارج المدينة ليتلقوا الخليفة الراشد، فلما التقوا بسيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه باتوا تلك الليلة في المكان الـــذي التقوا به فيه وقضوا ذلك اليوم، وكانت ليلة خميس، فلما رجعوا إلى المديـــنة أشفق عليهم الخليفة وقال لهم إنكم تعبتم في الخروج والرجوع وأمر ذلـــك المعلم أن يدع لهم يوم الخميس عطلة يستريحون فيها، ومن هنا نشأت تلك العطلة سواء كانت مستمرة طوال اليوم أو مقتطعة من جزء من اليوم .

هـــذه هي المدرسة الأولى التي أسسها المسلمون على أساس متين لتعليم القرآن وتدارسه وتحفيظه ونشره، وإن من الحقيقة التي لا بد أن نضعها نصب أعيننا أنه لا مقنع يغير التعليم اليومي المستمر للقرآن الكريم، فينبغي أن يكون تعليمنا وثقافتنا مدارها على هذا الكتاب الكريم .

(١) والواقـــدي إذا كـــان مضعفا عند علماء الحديث فإنه عمدة عند علماء التاريخ لأن التاريخ لا يتصـــل بـــالحلال والحـــرام والدين وإنما هو نقل الأخبار وإذا شدد علماء الحديث في نقل الحديث حرصا عن أن يتسرب إليه الشك فإنهم كانوا يتسامحون في رواية الأخبار .

وأريـــد أن أشـــير إلى حقيقة تاريخية أخرى قد يمر بها الكثير مر الكرام ولا يـــتوقفون عـــندها ولا يعرفون سرها، وهي أن القرآن الكريم مجزأ تجزئة تساعد على حفظه وقراءته إلى ثلاثين جزءا، ولكن هذه الأجزاء مقسمة أيضا إلى أربـــاع وأثمـــان كل جزء مقسم إلى ثمانية أقسام لو أخذت هذه الأجزاء الـــثلاثون بتجزئتها الصغرى لوجدنا أنها تعد مائتين وأربعين قسما " ٢٤٠ " وهـــذه الأقســـام المائـــتان والأربعون ما سر تجزئتها إلى هذا العدد لم تكن ثلاثمائة أو أربعمائة؟ إن من يدفق في هذه القضية يعلم أن هناك صلة شديدة بين هذا التحزيب والتقسيم للقرآن الكريم وبين الرغبة في قراءته يوميا وتحفظ أجـــزاء منه كل يوم حتى يمر الإنسان بنظره وطرفه وقلبه على هذا الكتاب الكريم كل عام على الأقل، فإذا أسقطنا الأيام التي كان يعطل فيها المعلمون والمتعـــلمون، وهي يومان من كل أسبوع لوجدنا أن مآل السنة على مائتين وأربعين يوما، وهذه المائتان والأربعون يوما ارتبط بها تجزئة القرآن وتقسيمه حتى يمر الإنسان على هذا الكتاب الكريم فلا يخلي يوما منه .

ومـــما يحزن النفوس أن تؤول حال هذه الأمة إلى أن يقال فيها: ﴿ وَقَالَ الرَّسُـــولُ يَارَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴾ [1] . فتعليم القرآن أصبح أمرا عاديا ليس له الاهتمام الكبير الذي ينبغي له، وإن هـــذه القضية ينبغي أن تعالج بأعلى المستويات، وينبغي أن يكون هناك برنامج يوميا لكل متعلم بأن يكون له صبوح من هذا الكتاب الكريم يفتتح به يومه، فيحس فيه بالـــبركة وبـــالقوة والجزالة في الألفاظ التي يسمعها والمعرفة التي يكتسبها، وهكذا نعود عودا حميدا إلى مبدأ هذا التعليم الذي كان مداره ومحوره على القرآن الكريم .

(١) سورة الفرقان/ ٣٠ .

١١ نماء العلم بتعليمه والعمل به

بعد أن أمر الله عز وجل بالعلم وحض عليه رسوله صلى الله عليه وسلم كان لا بد أن تكون لهذا العلم ثمرة . ما هي ثمرة العلم والتعلم، هل هو العلم للعلم كما يقولون أم هو العلم للتبليغ والنشر والعمل به ؟ نستمع إلى تشبيه يقدمه لنا حجة الإسلام الغزالي ذلك الإمام الذي مر شوطا طويلا في مجالات التعليم والتعلم وكتب كتابات خاصة وعامة في التربية وأصول التعليم والتعلم كانت ولا تزال منهاجا لمن يطرق هذا الموضوع .

يشـــبه الإمام الغزالي العلم بالمال ، فيقول : إن من يقدم على جمع المال يمر بأربع مراحل :

المرحلة الأولى : الاستفادة، أي جمع المال وتحصيله .

والمـــرحلة الثانـــية : الادخار، أي إنه بعد أن يجمع هذا المال ينفق منه مـــا ينفق ويغطي تكاليف جمعه ثم يدخر ما يفيض عنده من مال أوما يفيض من ربح .

والمـــرحلة الثالثة : الانتفاع به، فهو يعود به على نفسه وعياله ويستمتع بثمرات هذا المال .

وأمـــا المرحلة الرابعة والأخيرة ، فهي : نفع الآخرين به وبذله وإعطائه وهذا هو الذي يبقى للإنسان بعد وفاته لأن كل ما يأخذه من هذا المال يفنى والذي يبقى هو ما ينفقه ويتصدق به كما أشار إلى ذلك الحديث المعروف .

ويوضح الغزالي حجة الإسلام تشبيه العلم بالمال في مراحله تلك فيقول:

إن العلم يمر بمرحلة أولى وهي مرحلة الطلب والتحصيل وتساؤل الإنسان عما يجهله وجريه في كسب هذا العلم هذه هي المرحلة الأولى التي لا بد منها ، فالعلم بالتعلم والعلم كالرزق لا يترل من السماء وإنما يصعد إليه الإنسان فيمد إليه أكفه ويفتح له أذنه ويصغي إليه بقلبه .

هذه المرحلة الأولى تتلوها مرحلة ثانية هي حصول هذا العلم وإدراك الإنسان لتلك المعلومات والمقولات .

أما المرحلة الثالثة فهي التبصر، ومعنى التبصر أن يستفيد من هذا العلم فيقوم به اعوجاج نفسه ويتخلق بما يستفيد منه .

أما المرحلة الرابعة والأخيرة فهي التبصير وهي أن ينفع الآخرين بذلك العلم . وفي هذه المراحل الأربع تعتبر المرحلة الأخيرة هي ثمرة العلم، لأن ثمرة العلم نشره، وأما من اختزن العلم فضن به عن مستحقيه فإنه يسأل عن كتمه، ويلجم يوم القيامة بلجام من نار، وعن هذا العلم المكتوم يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : [1] " من سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار" ، ذلك أنه قطع الطريق بين انتقال هذا العلم إلى المتعلمين ، فإن الله عز وجل يعامله بجزاء من جنس هذا العمل: يغلق فاه ولكن بلجام من نار تكوى بها شفتاه وتتألم بها قواه التي ضن بها عن نشر هذا العلم، لأن الله عز وجل جعل الإنسان ناطقا ومبينا ليبين هذا العلم، فإذا خالف تلك القوة التي وضعها الله فيه فإنه يجازى بجزاء مشابه لما أقدم عليه من عمل .

(١) رواه الترمذي وأبو داود بإسناد حسن .

قـــيل للمهلب : ما لنا نراك قد أدركت ما لم يدرك غيرك مع أن غيرك يعلم مثلما تعلم ؟ ماذا قال المهلب في جواب أولئك الذين سألوه فقالوا له: إننا نعلم كثيرين قد حملوا من العلم مثلما حملت ولكن إدراكهم واستفادتهم في هـــذا العلم ليست مثلما عندك، فقال لهم المهلب : " ذاك علم حمل وهذا علم استعمل " . والعلم الذي يحمل لا يفيد وإنما يزيد نسخا من كتب ذلك العلم في البلاد التي يوجد فيها ذلك الإنسان، ولكن العلم المستعمل المستفاد منه بالتبصر والتبصير هو كل العلم .

ويشـــير الإمام الغزالي أيضا إلى أن شرف العلم يتبين من أحد أمرين : الأمر الأول ثمرته ، والأمر الثاني وثاقة دلائله وقوة أصوله، فإذا تعارض هذان الأمـــران كـــان الترجيح لشرف العلم من حيث ثمرته وفائدته إذ ثمرة العلم نشره .

وجـــزاء هذا النشر للعلم أن يحظى الإنسان بجملة من الخير والنفع، وقد أشـــار إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم في جوامع كلمه يقول صلى الله علـــيه وســـلم : " من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينـــتقص ذلك من أجورهم شيئا " . فمن يدعو إلى هدى يبث علما في الناس يتسبب في حصول الأجر المستمر الذي يحصل بما نشره من علم، والله عـــز وجل كريم لا ينقص من أجور من استفاد منه شيئا وإن كان لو نقص لكان ذلك عدلا، لأن هؤلاء استفادوا من ذلك الإنسان ولكن كرم الله عز وجل يجعل أجره وافيا وأجرهم كاملا .

ويقـــول صلى الله عليه وسلم : داعيا بالنضارة واستمرار الحياة الكريمة واستمرار الشباب والقوة والعافية لمن يبلغ العلم وينشره، يقول [1] : " نضر

(١) رواه البخاري ومسلم .

الله امـــرءا سمـــع منا شيئا فبلغه كما سمعه، فرب مبلغ أوعى من سامع " . فسماع العلم ونشره مدعاة لحصول ذلك الثواب الكبير الذي أشار إليه النبي صلى الله عليه وسلم، وهو مدعاة لتحقق تلك الدعوة الكريمة المستجابة التي دعـــا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم على مدى الأزمان لكل فرد ينهض بتبليغ العلم ويكون في جملة حملته .

وقـــد وصـــف رسول الله صلى الله عليه وسلم حملة العلم بأنهم عدول الأمة، أي الناس المعدلون الموصوفون بالمروءة والشهامة، لأنهم انبروا إلى أداء الأمانـــة بحمـــل هـــذا العلم من كل خلف، ففي كل زمن حملة العلم هم العدول، وهم الأشهاد على حمل هذه الأمانة وأدائها، نسأل الله عز وجل أن يجعلـــنا من الذين يحصلون على ثمرة العلم وعلى قطافه، ويستكملون مراحله مـــن طلـــب للعلم، وحصول للعلم، وتبصر به، وتبصير به للناس، لنكون مستجيبين لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أمر بقوله : " بلغوا عني ولو آية " [1] .

(١) حديث صحيح رواه البخاري .

١٢ أخلاقيات المعلم وواجباته

إن ثمـــرة العـــلم هـــي تعليمه ونشره والانتفاع منه والنفع به، و العلم لا يكـــون إلا بين عالم ومتعلم، وإن مما بذل العلماء من نصح أن توسعوا في هـــذا المجـــال فبيـــنوا أخلاق المعلم والمتعلم وآداب التعليم، وكتبوا في ذلك الكـــتابات الطويلة والكثيرة، ومن المؤسف أن هذا الجانب قد أصبح مغمورا في هذه الأيام بحجة أنه يفترض في الإنسان أن يعلمه، ومع هذا يقال للإنسان احـــترم المعـــلم وأكرم المعلم، ويقال أيضا للمعلم أشفق على المتعلم وأعطه مـــا يتطلـــبه الأمر، ولكن هذا الإجمال لا يستغني به، ولذلك نجد أن العلماء وضـــعوا كتبا متخصصة في هذا المجال، وخصصوا له أجزاء من علم مصطلح الحديث شرحوا فيها آداب حمل العلم وأدائه .

و من المشهور ما كتبه حجة الإسلام الغزالي في هذا الباب، فقد أوسع القول في كتابه إحياء علوم الدين عن أخلاق العالم والمتعلم، وكتب رسالة سماهـــا أيها الولد وجهها إلى طالب العـــلم ، فهو يعتبر أن طالب العلم إنما هو ولد للمعلم ، ولد روحي لـــه ، وكتب في ذلك فقهاء وعلماء ومحدثون فتوســـعوا في هـــذا الباب . وهذا الباب ينبغي أن يؤخذ بالاعتبار لأن هذا الطالب بعد أن وجد أن التعليم أصبح أمرا تقليديا قد تخفى عليه الواجبات عليه و الحقوق التي للمعلم ، ومن المؤسف أن المعلم نفسه لا يستطيع أن يبين هـــذه الحقـــوق فهـــل يقول المعلم للمتعلمين تأدبوا معي واعتبروا حقوقي

وراعوها ؟ أو يقول المتعلم للمعلم طالبا منه أن يرعاه أو يشفق عليه ولذلك يعتـــبر هذا واجب الآباء وهو أيضا واجب المصلحين في كل وقت وفي كل مناسبة .

ولعـــل التوســـع في أخلاق المعلم والمتعلم لا يمكن في هذا المقام، ولكن الإشـــارة قد تكون فيها كفاية، إن من أوجب واجبات المعلم الشفقة على متعلمي العلم منه وأسوته في هذا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنما أنا لكم بمنزلة الوالد أعلمكم " وقوله هذا موجه للصحابة، والرسول صلى الله علـــيه وسلم معلم الناس الخير، وهو المعلم الأول لهذه الأمة، وهو المعلم الدائـــم لها، فهو يعتبر أن مهمة التعليم إنما هي رعاية والدية ، وهذه الرعاية الوالديـــة كما قلت إنما هي ولادة روحية، والتشبيه بين الولد والمتعلم قديم، ووجـــه الشـــبه فيه ظاهر، فالوالد هو سبب وجود الإنسان في هذه الحياة الفانية، والمعلم والمربي أيضا هو سبب وجوده معنويا، وهو أيضا سبب بقائه، لأن تعليمه يحفظه من الهلاك فالوالد تسبب في وجوده والمعلم تسبب في بقائه واســـتمراره، والشفقة من المعلم تقتضي أن يكون رحيما أن يكون لينا أن يكـــون راعيا لهذا الصغير الذي يتعلم منه، أو الكبير الذي يجلس بين يديه، فالتشبيه في هذا فيه غناء، وهو من جوامع كلم النبي صلى الله عليه وسلم .

كمـــا أن مـــن واجبات المعلم أن يكون هناك جانب للتطوع والتبرع، وقديمـــا كان العلماء يحضون على تعليم العلم وإغناء الناس وإرشادهم بدون أجـــر حسبة، ليكون لهم ذلك الثواب الجليل، وهو ثواب من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه، ولكن لا يصلح أمر الناس إلا بترتيب مـــا يجعـــل لهـــؤلاء المعلمين كفايتهم ليفرغ قلبهم وتستعد نفوسهم، فهل هذا الذي يخصص للمعلم يعتـــبر كافيا له ؟ أو هل يكون هذا كل جزائه؟

لا شك أن المعلم مدعو ليعطي أكثر مما أخذ، ومهما أخذ فإن عطاءه يكون أجـــل وأعظم ولذلك يبقى عنصر التبرع والتطوع والاحتساب قائما، فإنه يبذل دون أن ينظر إلى ما يكون هناك من جزاء ومن مقابل .

وإن من واجبات المعلم أيضا النصح وهذا الواجب واجب إسلامي عام يقـــول رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الدين النصيحة" قلنا : " لمن يا رســـول الله " قـــال : " لله ولرســـوله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم . " فالنصـــح واجب إسلامي ولكنه بالنسبة للمعلم أوجب، ومعنى النصح أن يكـــون محققا لما يقدمه من معلومات، وأن يكون جريئا في التراجع إذا ظهر له خطؤه، وأن يكون مخلصا فيما يقدمه من علم ومعرفة .

ومـــن أوجب واجبات المعلم التلطف والرفق بمن يعلمه، ولهذا التلطف وسيلة معروفة استخدمها رسول الله صلى الله عليه وسلم، تلك هي التعريض وتفـــادي التصريح، فإذا وجد المعلم في المتعلم عيبا أو قصورا فإنه لا يجابهه بذلـــك فـــإن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان لا يواجه أحدا بما يكره، وكان إذا رابه أمر من إنسان وعرف ذلك الإنسان لا يصرح باسمه بل يقول: مـــا بال أقوام يفعلون كذا وكذا. والتعريض بالأمر فيه مدعاة لهذا الإنسان بالـــتراجع في ستر . أما التصريح فإنه كثيرا ما يكون إغراء بالإصرار والبقاء على خطئه وانحرافه .

ثم إن من أخلاق المعلم عدم الغض من شأن علم آخر لا يتولى تعليمه، وهذا خطأ يقع فيه كثير من المربين ويشكو منه المتعلمون أنفسهم، فإذا دخل على المتعلم مدرس في مادة فقد يعطي كل الاهتمام لتلك المادة وقد يصدر مـــنه شيء من المساس بمادة أخرى، وهذا إذا صـــح أن يعامل فإنه يعامل بالمثل القائل : " المرء عدو ما جهل " . يقول الله عز وجل: ﴿ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا

بـــه فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴾ [1] . فالمرء عدو ما جهل ، وهذا المعلم إذا أدرك شيئا فقد فاته أشياء، وإن من حق العلم عليه أن لا يغض من شأن علم آخـــر، بـــل يدع الفرصة للمعلمين الآخرين ليجدوا الطريق موطأة أمامهم ولا يجد في نفوس هؤلاء الطلاب وحشة من علم يلقنونهم إياه .

ومـــن أخـــلاق المعلم أيضا الحكمة ومراعاة التناسب فلا يعطي المتعلم إلا المقـــدار الـــذي يدركه ويتقنه، فإن من سنة النبي صلى الله عليه وسلم أن يكـــلم الـــناس بما يفهمون فقد جاء في الأثر : (علموا الناس على قدر عقولهم أتحبون أن يكذب الله ورسوله) .

(١) سورة الأحقاف / ١١ .

١٣ أخلاقيات المتعلم وواجباته

أوردت فيما مضى أخلاقيات المعلم وواجباته ولكن ما هي أخلاقيات المتعلم وواجباته ؟

إن واجبات المتعلم أكثر وأشد من واجبات المعلم، فالمعلم كما قلت متبرع حتى ولو تقاضى أجرا كبيرا فإنه متبرع لأنه يعطي أكثر مما أخذ، والمتعلم هو المستفيد وهو الآخذ، وهو الذي يجب عليه لين الجانب وخفض جناح الذل لمعلمه، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا يحل للمسلم الملق إلا في تعلم العلم " أو كما قال عليه الصلاة والسلام .

وإن أخلاق المتعلم كثيرة ولكن الإشارة إلى بعض منها تجعل هؤلاء المتعلمين يغرون معلميهم بأن يعطوهم وأن يستفرغوا جهدهم في نقل هذه الأمانة وحمل هذه العلوم إليهم .

إن أول ما يطلب من المتعلم أن يتحلى بمكارم الأخلاق، ومكارم الأخلاق ليست من أخلاق المتعلم وحده ولكنها أوجب في هذا المجال، لأن حسن خلق المتعلم يغري المعلم ببذل الجهد في تعليمه، فكيف تكون أخلاق المتعلم حسنة وكريمة ؟

إن أخلاق المتعلم كثيرة ولكن أهم أمر فيها حسن السؤال والتلطف في أخذ العلم والتواضع في التلقي، ولذلك يقول أحد الحكماء : " لا تسل رياء ولا تترك السؤال حياء " . فالسؤال هو مفتاح العلم وهو الوسيلة التي

يتوصل بها إلى تلقيه وإن أحدث طرق التعليم التي نعايشها تقوم على المناقشة والمحـــاورة بين المعلم والمتعلم، فكما يسأل المعلم يسأل المتعلم، فالسؤال رياء أن يصطنع المتعلم الجهل ويحرج معلمه وهذا ينطبق عليه ما ينطبق على الرياء سواء بسواء، وأما ترك السؤال حياء فإنه حجاب بين المتعلم وبين أخذ العلم، ولذلـــك يقـــول الإمام مجاهد بن جبر: " لا يتعلم العلم مستح ولا متكبر " المستحي يخشى من أن يقال عنه أنه لا يعلم فيبقى جاهلا إلى الأبد، أما الذي يجـــرؤ ويسأل فإنه يتحمل خجلا قليلا ولكنه يصل إلى بغيته، ولذلك مدح رسول الله نساء الأنصار فقال : " نعم النساء نساء الأنصار لم يمنعهن الحياء من التفقه في الدين ".

أما الخلق الآخر الذي يجب على المتعلم فهو تقليل شواغله وتفريغ نفسه للعلم، يقول الخليل بن أحمد : العلم لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك، فإذا أعطيته كلك فإنه في إعطائه إياك بعضه على خطر عظيم" وهذه حكمة فيها دقـــة وعمق فالعلم لا يعطيك بعضه إلا إذا أعطيته كلك، فإذا كنت موزع الفكر مشتت الخاطر، لا تصفو نفسك وجوارحك لهذا العلم بكليتك فإنك تصـــل إلى بعضـــك، ثم إنك إذا أعطيته كلك لتحصل على هذا البعض فإن حصـــولك على هذا البعض ليس على طرف الثمام، وإنما هو أمر شاق دونه جهد و تحمل مصاعب .

مـــن أخلاق المتعلم أيضا التواضع وإلقاء السمع، فالإصغاء هو وسيلة التعلم، ولذلك يقول الله عز وجل في كتابه الكريم : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَـــنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [1] . فالذي له قلب ذلك الإنسان الذي يتفهم حقائق العلم، وتفهم حقائق العلم لا يكون إلا بالتواضع الذي يمكن الإنسان من السؤال والتثبت إذا لم يفهم من المرة الأولى، فهذا هو

(١) سورة ق / ٣٧ .

الذي له قلب وفهم في الأمر أما من ألقى السمع وهو شهيد فهو الذي يصغي ويعطي كله لهذا العلم .

ثم إن من أخلاق المتعلم أيضا أن يصبر ويداوم على تعلم العلم فإن أحب العمل إلى الله أدومه وإن قل، فإذا انتقل الإنسان من علم إلى علم قبل أن يتقن ذلك العلم فإنه لا يستفيد وإنما يجمع أمورا ظنية لم تبلغ إلى درجة اليقين .

ومن أخلاق المتعلم إخلاص القصد وأن يكون غرضه من تعلم العلم وجه الله عز وجل، فإن هذا العلم هو كرم وفضل من الله عز وجل، وهو نور يقذفه في قلوب من يحب، فإذا كان الإنسان قد حمل في نفسه أغراضا دنيوية، وتعلم هذا العلم ليجادل به العلماء ويماري به السفهاء ويجمع إليه وجوه الناس فإن الله عز وجل يحرمه من بركة هذا العلم .

ذلك أن أولى وسائل جمع العلم واستيعابه هي الحفظ، والحفظ بركة من الله عز وجل فالحفظ وقوة الذاكرة أمر لا تسبب فيه للإنسان إذ لا يستطيع الإنسان أن يجلب تلك القوة وإنما هي منحة من الله عز وجل .

وهذه المنحة تزداد وتقوى بتقوى الله عز وجل ولعل العالمين والمتعلمين القدامى كانوا يضعون نصب أعينهم ذلك المبدأ فإن تقوى الله عز وجل وإخلاص القصد وابتغاء الأجر والاحتساب كل تلك الغايات هي التي تجعل الإنسان قويا على حمل العلم قويا على نشره، ولذلك كانوا يرددون هذين البيتين ويحفظونهما للمتعلمين :

شكوت إلى وكيع سوء حظي فأرشدني إلى ترك المعاصي
وأنبأني بأن العلم نور ونور الله لا يهدى لعاصي

★ ★ ★